كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة غرداية
مجلة إسهامات للبحوث والدراسات
E-ISSN.2543- 3636 / P-ISSN.2543- 3539
http: //ishamat.univ-ghardaia.dz/index

عمارة الواحة: المجال الطبيعي والوعي البيئي

زينب قندوز- جامعة القيروان / تونس
gandouzzeineb@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2016/12/19 تاريخ القبول: 2017/05/17

الملخص:

المسكن التقليدي كانت له الواحة موقعا ومستقرّا، صيغت المساكن أشكالها من ملامح الواحة واستمدّت من تفاصيلها جزئيات لتفرض بقائها بوجود الواحة. مساكن مجالها منظّرها؛ أقام الموقع وفرض الهيئة ليحقّق الشّكل علّه النّهائي. فالمجال الواحي هنا مُفتعِلُ المسكن بلا منازع.

لم تكن بناءات الواحة إسقاطا على المنظومة البيئيّة بقدر ما كانت جزءا من تلك المنظومة. فمن مجاله يتبنّى مسكن الواحة موادا خام وأوّليّة استنتجها من محيطه، يُجاري العوامل الطبيعيّة والمؤثّرات الخارجيّة، يتطوّر وينمو بتطوّر مجاله ونموّه ليكون ذاتُ "البناء" نتاجا لهذا التّفاعل. بناءات تتشكّل في المكان خاصّتها، يُرافقها تِباعًا كمّ من المُدّخرات ومخزون الخبرات. أقيمت الأحواش التقليديّة استنادا لخبرة متوارثة وحصيلة اجتهادات ومن تجارب ذاتية مشتركة، كذلك اعتمادا على الإحساس الفطري بالاحتياج والوعي البيئي الاجتماعي. فهل أنّ السّكن الواحي بناءه مدروس سلفًا؟ أم أنّه إنشاء عفوي؟ أم علّه عمل انتقائي؟

الكلمات المفاتيح: السكن التقليدي- بناء مُهَنْدَسْ- بناء تلقائي.

Résumé

La maison traditionnelle du sud tunisien est un lieu d'habitation dont les grandes lignes ont été définies par l'environnement et dont l'aspect général fut déterminé par le savoir-faire hérité, de génération en génération, et matérialisé par des formes architecturales. Le processus

d'édification et les choix formels relèvent sans doute moins d'un ensemble de facteurs précis que d'une vision du monde. C'est qui fait que le style des habitations et la créativité formelle émanent des efforts, expériences et compétences multiples développes par des générations d'homme, sur de longues années, et convergeant en une seule visée ; faire de la maison le lieu où se rencontrent les vues de l'individu et celles du groupe, en harmonie avec le milieu naturel.

les mots clés: maison traditionnelle, l'environnement, architecturales

مقدمة

اقترنت قرى/مدن الواحة بمجالها الطّبيعي، فأسّست بناءات وفق إملاءات التّشريع البيئي لتكون النّواة الأولى؛ مُستقرّا على أرض تتوفّر على الواحة والماء (p71, 2011 Gafsa ASM,). تأسست مساكن قرى/مدن الواحة من توافق مجالها الطّبيعي ومواد البناء "المحلّيّة"، فاستجابت للضّرورات المناخيّة وكانت حصنًا رادعا لمُؤثّراته. تبنّت ما أتاحه لها المجال الطّبيعي مَحملا، وما وفّرته لها الطّبيعة موادًا، لتُقيمَ بناءات هي مُنتج لمجالها. "فالموضع الطّبيعي ليس عمليّة تغيّر مستقلّة بالكامل عن الإنسان، ولا عاملا ثابتا. إنّه واقع يُحوّله الإنسان تقريبا بطرقه المتعدّدة للتّأثير على الطّبيعة ولتملّك الطّبيعة".(Godelier M., 1984, p73)

لم تكن بناءات الواحة إسقاطا على المنظومة البيئيّة بقدر ما كانت جزءا من تلك المنظومة. فمن مجاله يتبنّى مسكن الواحة موادا خاما وأوّليّة استنتجها من محيطه، يُجاري العوامل الطبيعيّة والمؤثّرات الخارجيّة، يتطوّر وينمو بتطوّر مجاله ونموّه ليكون ذاتُ "البناء" نتاجا لهذا التّفاعل. بناءات تتشكّل في المكان خاصّيتها، يُرافقها تِباعًا كمّ من المُدّخرات ومخزون الخبرات.

فهل أنّ السّكن الواحي بناءه مدروس سلفًا؟ أم أنّه إنشاء عفوي؟ أم علّه عمل انتقائي؟

سكن واحي مُبرمج: تكوّن مقصود وبناء "مُهندَسْ"

سواء أكان هذا التّجمّع السّكني في مركز الواحة أو على مقربة منها أو هو بين الجبل والواحة فقد اقتضت طبيعة منطقة الواحات أن يستقرّ وافدوها على مقربة من المجال الواحي وعيون الماء. إطار طبيعي مُهيّأ ليتبنّى مساكن هي بعضٌ من مجالها.

تُعدّ الواحة ورشة عمل شاغري الفضاء السّكني، فكانت الأرضيّة محمل السّكن، اتّخذ من طوبها

جدرانا ومن نخيلها أسْقفَ. أوجِدت البناءات لكي تجيب على ضرورات مناخية بمعنى، أن المساكن كانت حصنًا رادعا لمؤثرات المناخ، كذلك هي بناءات في تبعية للوظيفة والمواد الأوّليّة، يجعلها -أي المساكن- تدرج في خانة الدّراسة والبرمجة فنكون إزاء تكوّن مقصود وبناء "مُهندَسْ". استعان منظرو الفضاء السّكني بأشجار النّخيل لتكون واقٍ نباتي ضدّ الرّياح والعواصف الرّمليّة وأشعّة الشّمس (ريح الشّهيلي)، كما أنّ لشاهقات النّخيل دورها في خلق مناطق ظلال والتّخفيض من سرعة الرّيح.

يُعدّ الفضاء المعماري الوعاء الشامل الذي يحوي الكتل العمرانية والفضاءات البينية والذي تتمّ فيه الحركة وتمارس فيه الأنشطة ويتفاعل فيه الناس والذي يمكن تمثيله على أساس نظام فراغي.

منطلق الدّراسة والبرمجة لمساكن الواحة هو موقعها المميّز وتطوّر نسيجها العمراني بخلق علاقات بين الوحدات المكوّنة لوحدة القرية/المدينة، فكان ذلك من خلال شبكة الطّرقات النّافذة إلى الوحدات حسب أهمّيتها. نسيج عمراني رُعيت فيه الخصائص المناخيّة للمنطقة والخصائص الاجتماعية والاقتصاديّة. تجمّعت المساكن على شكل كتل مُتراصّة أفقيّا ومتلاصقة بعضا ببعض بشكل يمنع تعرّض أكبر ما يُمكن من الجدران الخارجيّة إلى أشعّة شمس الصّيف وبرودة طقس الشتاء هذا من أجل تحقيق الاعتدال. داخل حدود القرية كان لعلوّ بناءات المساكن شروط حُدّدت وفق عادات وتقاليد المجتمع وطبيعة المنطقة الصّحراويّة.

إن ضيق الشوارع وقرب الحيطان بعضها من بعض ووجود المظلات والاقواس احيانا ادى الى وفرة الظل في الشوارع لوقاية المشاة من ضربة الشمس وضيق الشوارع وتجاور المساكن بعضها جنب وقربها من بعضها البعض أدّى الى التقليل من تأثير الرياح. تُلقي هذه الكتل البنائيّة بظلالها في فراغ الأزقّة الضّيّقة، بحيث أمكنها أن تُغطّي كامل عُرضه وفي بعض الأحيان تتعدّى ظلالها إلى المباني المقابلة وذلك للتّخفيف من الأشعّة المباشرة ومن كمّية الحرارة التي ستنتقل لاحقا ولو بكمّيات أقلّ إلى داخل المساكن. إضافة إلى عرقلة حركة مرور الرّياح الرّمليّة داخل الأزقة بفضل التواءاتها ومعاكستها لوجهة الرّياح، تُوجّه مُعظم المساكن نحو الجنوب الغربي ممّا يسمح بتوفير حدّ أدنى من الكسب الشّمسي صيفا ومن الضّياع الحراري شتاء.

يتصف النسيج العمراني التقليدي بضيق الطرقات وبتراصّ وصلابة الكتل وترابطها وتداخلها مع الفراغات المعمارية في النسيج العمراني، وذلك كردّة فعل للمؤثرات المناخية، كما يتميز هذا النسيج التقليدي بكثافة الكتل المعمارية المترابطة والمتصلة ببعضها البعض بحيث يضلّل كلّ منهما الآخر، والتي تتخلّلها الطرق والأزقة الضيقة والمتعرّجة التي توفّر الظلّ ونسمات الهواء البارد للمارّة، بالإضافة إلى تقليل آثار الرياح والعواصف الرّمليّة.

مباني الواحة، وحدات ملتحمة أو شبه ملتحمة في نسيج عشوائي منظّم، هو التخطيط المدمج أو النسيج المتضامّ (Compact)، تلتفّ الوحدات حول الفراغات الداخلية لأفنيتها مما يوفر أكبر مساحة مظللة، ويعتبر تكامل الفراغات وتداخله ميزة الفضاء السّكني، ولعلّ هذا "التخطيط" العضوي يعمل على الحدّ من تعرض مكوناته المختلفة كالمسكن والشوارع والممرّات إلى قدر كبير من المؤثرات البيئية الخارجية كأشعة الشمس المباشرة أو الأتربة المحمولة في الهواء، فتُقلّل من حرارة الشمس وتحدّ من قوّة الرّيح. ومن مميزات التخطيط المتضامّ أنه يقلّل من أطوال الطرق والممرات وتعمل الخطوط المنكسرة لممرات المشاة على عدم تشجيع حركة الرياح داخلها، علاوة على توفيرها لقدر من الظلال والحماية الطبيعية لداخل الممرات، وتزداد كفاءة تلك الممرات عندما تصبح مسقوفة أو شبه مسقوفة حيث تقوم بتوفير الحماية الطبيعية للمشاة ضد أشعة الشمس المباشرة أو الحماية من الأتربة العالقة بالجو (حازم محمد إبراهيم، ص41، مارس 1981).

تتقارب مباني المدينة بعضها من بعض حيث تتكتل وتتراص في صفوف متلاصقة، في البيئة الصحراوية الجافة يكون التفاوت كبير بين درجة الحرارة صيفاً وشتاء، وكذلك بين الليل والنهار، مما يوجب معه استخدام التخطيط المتضام المتلاحم لتوفير أكبر قدر من الظلال التي تسقطها المباني على بعضها البعض والناتجة عن اختلاف الارتفاعات والبروزات في الحوائط الخارجية، بحيث لا يتعرض لأشعة الشمس سوى أقل مساحة من الواجهات والأسطح، ومن ثم تكون الطاقة النافذة أو المتسربة إلى المباني في أضيق الحدود. ومن سمات التخطيط المدمج أن عروض الشوارع ضيقة وملتوية، لتقليل المساحات المعرضة للشمس مما يعمل على الاستقرار الحراري والحفاظ على ركود الهواء البارد أسفل الشوارع، مع مراعاة أن تكون متعامدة على اتجاه الرياح السائدة بسبب احتمال هبوب الرياح المحملة بالرمال والأتربة، التي تؤدي إلى رفع درجة الحرارة داخل المباني.

يتميّز تخطيط قرى/مدن الواحة بالمركزيّة والتفاضلية: مركزيّة الجامع الذي يتوسّط القرية/المدينة، والتفاضليّة التي خطت عليها منظومة الأنهج والأزقة والباحات. "وهذا ما يؤدي إلى كثافة النسيج وتراصّ الوحدات وتلاصُقها." (الناصر البقلوطي، 2005، ص156)

اعتمد الفكر التخطيطي لقرى/مدن الواحة على مفهومي الخصوصيّة والحماية ما انعكس على الهيكل الحظري. لقد تميّز النسيج العمراني لهذه الأفضية بمقاسه العام ووحداته ذات الاستمراريّة والتجانس، والنّمط العضوي المُتضامّ، المُتراصّ حيث تظهر القرية/المدينة كبنية مُتلاحمة الأجزاء متكوّنة من مجاميع عمرانيّة مُتراصّة، وذات واجهات مستمرّة غير منقطعة، فضلا على خاصّيّة الانفتاح على الدّاخل، استجابة

للمتطلّبات الاجتماعيّة ومتطلّبات البيئة المناخيّة. ليمثل هذا النسيج انعكاسا للروابط البيئية والاجتماعية والروحية ضمن المجتمع الاسلامي.

يمتاز النسيج الحضري لمدن الواحة بتخطيطه المتراصف، حيث أن هناك الأزقة الملتوية الضيقة والمتعرجة التي تجعل الدور متقاربة بعضها مع البعض الآخر، فيعطي تضليلا للماشي في هذه الأزقة، فهذا التخطيط يساعد في التقليل من المساحة المعرضة لأشعة الشمس، كما أن الالتواء والتعرج في الأزقة يحدّ من اندفاع الرياح والعواصف الترابية من المناطق الصحراوية المجاورة. كذلك، "تعمل الخطوط المنكسرة لممرات المشاة والمكوّنة من متتابعات فراغية مختلفة الشكل والمساحة على عدم تشجيع حركة الرياح داخلها، علاوة على توفيرها لقدر من الظلال والحماية الطبيعية لداخل الممرات" بالجو (حازم محمد إبراهيم، ص16، مارس 1981).

فمجموعة الوحدات السكنية كانت على شاكلة نسيج عضوي متشابك وتحصر بينها الأزقة ومسارات الحركة التي كانت ضيقة ومتعرجة ومحاطة بجدران شبه مصمتة ومظلّلة، فتعمل كمنظم حراري للوحدة السكنية والمجموعة ككلّ. وفي هذا السياق نذكر مدينة غدامس بليبيا؛ فقد امتازت بتفوقها في معالجاتها التخطيطية، بحيث كانت أكثر الأزقة المقنطرة مظلّلة مع وجود فتحات للإنارة والتهوية على مسافات تتراوح ما بين (12 و15متر) مما يعمل على خلق مناطق ذات ضغط عالي وأخرى ذات ضغط واطئ، وبالتالي يساعد على إحداث تحرك هوائي طبيعي يلطف من حدّة المناخ الحار الجاف الذي تمتاز به المناطق الصحراوية في شمال إفريقية.

يحتوي المسكن التقليدي على أفكار تصميمية تتناسب مع الظروف الطبيعية والمناخية حيث الجو الحار والجاف صيفا، والبارد والجاف شتاءا. ونظرا لإدراك سكان المدن التقليدية قساوة مناخهم، كانت أبنيتهم ودورهم متجاوبة مع هذا المناخ بهدف تقليل أثره إلى أقصى حدّ ممكن. توافُق المسكن الواحي التّقليدي مع البيئة تمّ تحقيقه وفق استراتيجيتين هما الحماية والتّكيّف. تمّ تحقيق الحماية بالحدّ من تأثير ظروف البيئة الطبيعيّة القاسية كالمناخ الحار وقلّة الرّطوبة في بعض المناطق وارتفاعها في مناطق أخرى وشدّة الاشعاع الشّمسي. أمّا التكيّف فكان باستغلال الامكانيات الكامنة لهذه الظروف القاسية والتّعامل معها واستغلال مصادر الطاقة الطبيعيّة كالشّمس والرّياح.

اعتمدت العمارة التقليدية على التعامل مع المنتوج المعماري من حيث الشكل والوظيفة. فالشكل - كتعبير جمالي- جاء كنتاج للمؤثرات البيئة المناخية على منطقتنا التي تتميز بدرجة سطوع عالية للشمس

والارتفاع في درجات الحرارة، من حيث اعتماد النسيج المتضام في تخطيط المدن والاتجاه إلى الداخل والانفتاح على الأفنية لتلافي الارتفاع في درجات الحرارة والاستفادة من العلاقة الجمالية التي تتوالد بين الظل والضوء وانعكاساتهما المتبادلة على سطوح المباني.

أما الوظيفة فكانت ناتجة عن حاجة المجتمع للتعبير عن قيمه الثقافية والدينية التي تحث على احترام خصوصية الفرد والأسرة وبالتالي جاءت الحلول التخطيطية والمعمارية واضحة وجلية في هذا الشأن من خلال الاتجاه إلى الداخل والانفتاح على فناء وتحقيق عوامل الخصوصية والترابط الاجتماعي في آن واحد، وتوظيف الحوائط المصمتة السميكة والفتحات الصغيرة كمعالجات للواجهات لمنع أعين المتطفلين من النظر إلى حرمات البيت. كذلك اعتمد النظام الاجتماعي المترابط أيضا فكرة النسيج المتضام. وبذلك توحدت الوظيفة مع المطلب الاجتماعي والمناخي وأثمرت رؤية تخطيطية هي مزيج بين المنفعة والجمال.

بناء تلقائي: تطوّر تلقائي: بناء غير "مُهندَسْ"

كان للعفويّة حضورها بمساكن شيّدت في غياب المخطّط، فيكون التطوّر تلقائي وبناء غير "مُهندَسْ". إنّ التلقائي العفوي هو البناء من دون تخطيط مسبق، بناء من دون مهندس، بناء غير مُهَنْدَس بحيث لا يمكن الحديث عن عمارة بقدر ما هو حديث عن بناء، فالمساكن لم تكن لها نفس خصوصيّات التّشكّل وإن تقارب فيها الشّكل الظّاهر. كذلك، كان استغلال الموارد الطبيعية محكوما بما تجود به الأرض، فلم يكن اختيارا بقدر ما كان إلزامي. لذلك استعان المتساكنون بالموجود وعاشوا مفهوم "الاستدامة" وطبّقوه بشكل عفوي وتلقائي. لقد كان تفاعلهم مع البيئة المحيطة والاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية جزءا من ضمان بقائهم بالتوافق مع الأرض واستغلال ما توجِد به من خبرات والتكيف مع الظروف الصعبة، كالمناخ القاسي وشحّ بعض الموارد. "الاستدامة" بالنسبة لهم كانت عفوية وتلقائية، على أن عفوية تعامل الأجداد مع البيئة لم تكن عشوائية أو فطرية بل استندت على إرث عميق من التجارب عبر مبدأ "التجربة والخطأ" يدعمه حضور ذهني وفكري نافذ.

استجابت التقنيات البسيطة للمواد المتوافر عليها محيط الواحة من تربة وخشب وحجارة، حيث كانت الحلول فعالة ومتفاعلة مع البيئة والموارد. في هذا السياق فإن بول أوليفير Paul Oliver في كتابه موسوعة العمارة التقليدية يعزو نجاح العمارة التقليدية إلى كونها نتاجا للتجاوب المنطقي مع الموارد المتوفرة في البيئة والعوامل المناخية وحاجات المجتمع (Paul Oliver, 1997, p 2).

لئن كان اختيار الموقع قد خضع إلى ضرورات حياتيّة وتوظيف المواد إلى ضرورات طبيعيّة، فإنّ نسق

تطوّر سكن الواحة قد استند إلى ضرورات معيشية توافق مع حاجة مستعملي الفضاء وكيفيات التعامل مع الفضاء السّكني. فتطوّر الوحدة السّكنيّة لئن خضع لمواد البناء المُتوفّرة، والتي تحدّ في جانب كبير منها عمليّة تطوّر المسكن الواحي، فإنّ الفضاء السّكني قد أوجد لنفسه مساحة عمل حرّ يتطوّر بموجبها بصفة عفويّة دونما شروط.

ينشأ السّكن على مراحل بحيث يكون المنطلق وحدات ضروريّة كالدّار والسّقيفة والمستراح ووسط الحوش، تتزايد الوحدات كلّما اقتضت الحاجة من ذلك تزايد أفراد العائلة أو العائلات الشّاغرة للمسكن ليكون التوسّع على حساب المجال المخصّص للبناء أو ربّما تجاوزه ليكون الفعل في الموجود بمعنى، التّخلّي عن بعض الوحدات لفائدة أخرى ولعلّ التّأسيس ليس مُقترنًا ضرورة بالإنشاء "من لا شيء" بل من فضاءات مُستهلكة بزيادة عناصر لتكون الإضافة أو هو نقصانُ أخرى لتكون ذات الإضافة.

ازدواجيّة التكوين: بناء انتقائي

يتشكّل الفضاء السّكني على أرضه، في جانب كبير منه، بصورة عضويّة وتلقائية دون الارتباط المسبق باعتبارات تشكيلية أو معمارية معيّنة... إلاّ أنّها تلقائيّة مشروطة تُجاري البيئة المحيطة بها كما تتوافق ومتطلّبات المجموعة، فيأتي العمران صادقا في عشقه للأرض وطوبوغرافيتها.

إنّ بتوافر عناصر البيئة المحيطة به في استخراج مواد البناء، واستنادا لخبرات متوارثة في إيجاد أساليب بنائه؛ كان وراء حضور مميّز لفضاء سكني بأن أحدث تجانساً بين الموجود موادا والمرغوب وظيفة. تراوحا بين المادة/الفكرة على اعتبار أنّ الشكل مادة تُدرَك، تُحَسّ، تنظر وتُناظر، كما الشكل هيكلة تعكس فكرا. إنّ بين قيام الشكل على فكرٍ مدروس مبرمج وقيامه بتطويع المادّة ليحمل التّشكّل بعضا من التلقائية تكون الجدليّة؛ ما يستدعي حضور قطب ثالث متمثّلا في الممارسة لنكون بالتّالي قبالة سكن انتقائي.

تعدّ العمارة السكنية التقليدية تشكيلا خاصّا للفراغات السكنية، وهي نتيجة تحصيل معارف في طرائق البناء والانشاء وفي استحقاقات أنماط العيش ومتطلّباتها. يتمّ تداول تلك المعارف كابرا عن كابر، فتتراكم المعرفة وتتبلور الإضافة. يتميز البناء فيها باستعمال مواد طبيعية مستخرجة من المحيط القريب، والاستعانة بمهارات إنشائية متراكمة ومتداولة، "وذلك حسب تخطيط معلوم، تتكامل فيه فراغات مكشوفة وأخرى مسقوفة" (الناصر البقلوطي، 2015، ص155). تمثل التقاليد نمطا سلوكيا يتبعه الفرد كما الجماعة، اقتداء بسنن الأسلاف وتمسكا بها، وهي تحمل رواسب متوارثة ومتراكمة..

في ميدان البناء، تحيل التقاليد إلى التجربة المتراكمة التي تحصل بتواصل الممارسة والتداول بالنقل من السلف إلى الخلف في احترام ضمني للنماذج، ولمّا كانت العمارة التقليدية شكلا من أشكال تهيئة الانسان للمجال الذي يعيش فيه، أي نمط سكن متأثر بثقافة الجماعة وبقيمها، فإنّ التقاليد السكنية تعبير مباشر عن تلك الثقافة في مضمونها المادي وغير المادي، وتجسيم لمعارف ومهارات متراكمة، قد أفضت إلى بلورة نماذج وأنماط معمارية أصبحت ذات صبغة معيارية موجبة ضمنيا، وبذلك تفيد التقاليد نسقا سلوكيا يحتذى ويتبع بصفة تلقائية ولكنها تكاد تكون إلزامية.

تعدّ العمارة التقليدية نتيجة تفاعل بين المعطيات المناخية والإمكانات الطبيعية المحلية مع حاجيات الانسان السكنية ومتطلبات نمط عيشه، في نطاق نسق القيم ومنظومة الأعراف السائدة، هكذا إنتاج أنماط معمارية سكنية، تشكل قواعد ينبغي احترامها، انطلاقا من نماذج ضمنية معلومة مسبقا (الناصر البقلوطي، 2005، ص16)، فلا تتغيّر سوى بعض التفاصيل عند التنفيذ، بحيث تعدّ الأنماط المعمارية من الثوابت، أمّا المتغيرات فهي شخصية، تتماشى مع أوضاع المالك المادية أو أنها تعود إلى الاختلافات الطبيعية كالتضاريس مثلا. لقد أبدع الأسلاف فكريا، فاستنتجوا مواد بنائهم من الطبيعة (قوالب الطين والحجر). ولعلّ استغلال مرونة الطين في التحكم في شكل مادة البناء وهندستها عكس ذوقهم في بناء مساكنهم، والذي ساعدهم كأداة لتنفيذ ما بذهنهم من ذوق وسلاسة في توظيف الأيادي، لتكتشف هذه الأخيرة ما وراء ما تتفحّصه العين لتصبح بذلك أداة مكمّلة للعقل. فبواسطة خبرته التجريبية تمكّن البناؤون من تمييز الخطوط الأسهل لشقّ الخشب والحجارة، فكشفوا طبيعة الأشياء وتجاوزوا القوانين المتحكمة ببنية المادة. لم يمتلك البناؤون أكثر من خزّان عقولهم من النماذج والأفكار اجتمعت بالتجربة مع أدوات بسيطة فكانت حرفة البناء بمثابة طلسم يحمله البناؤون بعقولهم ومهارة أيديهم، سرّها من أسرار المعرفة يقع خارج حدود التعلّم.

كما الطين وطوب الأرض، مادّتان طُوّعتا بأفكار وتجارب مستخدمي الفضاء السكني، لإقامة صروح سكنية، كانت تقنية الحفر (تجسّدها غياب المادة) نتاجا لحضور الحسّ والحدس والخبرات المتراكمة المتمثلة في الإرث المهاري والتقني. ويتشكل الفضاء تدريجيا من خلال تفاعل التجارب المتراكمة التي تختزل بعضها البعض بالتكامل والمواصلة. والحفر صناعة متوارثة أب عن جدّ، لها قواعدها وقوانينها التي تقع مراعاتها في كلّ عمليّة، ممّا يعكس فكرا إنشائيا تصوّريّا، مصادقا لقول أبو حيان التوحيدي: "الفكر هو مفتاح الصنائع البشرية" (أبو حيان التوحيدي، 1965، ص134). الحفر صنعة لا تقوم إلا بالممارسة حيث تتطلب حضور العين (كفاعل للإبصار والادراك) والذاكرة لحفظ هذا المدرك وخزنه (أيوب عبد الرحمان، 1998، ص 38).

إنشاءً كان بمثابة باكورة تجارب الأسلاف على تواترهم، خبرات متوارثة، نتاج لممارسات في البناء والتشييد أُحتُفظ فيها بالأفضل. فكانت دروسا في البناء وفي طرائق الإنجاز، مما يعكس عمق المعرفة المتراكمة بحكم التجربة والتداول التي اكتسبها البناؤون المحليون الذين حذقوا فنون تجسيدها في بناء ملائم للظروف المناخية بما يوفره المحيط الطبيعي من مواد مندمجة في الوسط الحضري، ومستجيب لمتطلّبات أنماط العيش. تتكامل عناصر التصميم المستدام مع الفكر "التصميمي" للعمارة التقليدية، التي تم اختيارها وأثبت نجاح حلولها عبر فترات طويلة من التجربة والخطأ باستخدام مواد البناء المحلية وبتقنيات بسيطة مدروسة لكنها نابعة من بيئتها المحلية.

تعتبر قرى/ مدن الواحة بنسيجها المتضامن التقليدي أفضل مثال على تطبيق مفهوم الاستدامة على مستوى المدينة ككل، فتخطيط المدينة ومعالجات مسارات الحركة من حيث الشكل، العرض والطول، التوجيه وتغيير الاتجاه يمثل الحركة الأساسية للتكيف مع البيئي، يؤدى النسيج المتضام إلى تلطيف مؤثرات المناخ القاسية والتخفيف من أثرها خاصة درجات الحرارة على الأبنية خاصة الوحدات السكنية، ولعلّ هذا "التخطيط" العضوي يعمل على الحد من تعرض مكوناته المختلفة كالمسكن والشوارع والممرات إلى قدر كبير من المؤثرات البيئية الخارجية كأشعة الشمس المباشرة أو الأتربة المحمولة في الهواء.

إن أساليب العمران التقليدي كانت متجاوبة مع البيئة ونابعة منها سواء في الحلول التخطيطية أو الافكار التصميمية أو في مواد البناء المستخدمة أو في المعالجات المناخية.

لقد عاش المجتمع الواحي بالبنايات التقليدية طبقاً لنظم وعادات اجتماعية تكوّنت وتطوّرت عبر أجيال مختلفة بناءا على خبرة إنسانية متوارثة من حصيلة اجتهادات ومن تجارب ذاتية مشتركة كان للإحساس الفطري دور كبير في خلق هذه "التصاميم"، كما كان للاحتياج والوعي البيئي الاجتماعي دور في حل معظم عقبات "التصميم" لمراعاة المناخ والعادات والتقاليد الاجتماعية، مما أوجد نماذج من المنازل التقليدية الناجحة استمر استخدامها عشرات السنين. ولذا نجد ان المدينة التقليدية تعطي للإنسان الأساس اللاّزم لتشكيل كتلي وفراغي متكامل وتفاعل مكاني متواصل.

يقدم السكن التقليدي مجموعة من القيم الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية التي حملها عبر مسيرة تشكّله كان قد عايشها ساكنه، وذلك لتحقيق المعادلة بين الشكل والمضمون، بين الجمال والمنفعة، بين المتانة والاقتصاد، بين الأنا والمجتمع، معادلة اعتمدت على التجربة والخطأ المنطلقة من معطيات المحلية بكل ما تحمله من إرث ثقافي واجتماعي وبيئي.

قائمة المراجع:

1. أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة.
2. أيوب عبد الرحمان، الذاكرة واللّهجات، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية، عدد 1998/2.
3. الناصر البقلوطي، مقولات في التراث الشعبي، تبر الزمان 2005.
4. الناصر البقلوطي، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 30، مقال تحت عنوان: "العمارة السكنية بالمدن العتيقة التونسية مقاربة ثقافية حضرية"، الصفحة 155.
5. حازم محمد إبراهيم، "التنمية العمرانية في المناطق الصحراوية"، عالم البناء، العدد (8)، مارس 1981.

6. Dictionnaire Larousse.
7. Gafsa: une médina oasienne en Tunisie, sous la coordination de Francesca Soro et P. de Montaner, ASM Gafsa, 2éme édition,.
8. Godelier M, L'environnement. Paris, PUF, 1984.
9. Encyclopedia of Vernacular Architecture of the World, sous la direction de Paul Oliver, volume 1, Cambridge University Press, 1997.